رجل فكر وإبداع..

ماجد السامرائي

الحياة مهنتي وهوايتي معاً. أشعر أنني فتحت صدري وعقلي لأُناس كثيرين، وكانت في صلتي بهم دائماً حرارةٌ إيجابية تجعلني أُريد أن أفهمهم وأتعاطف معهم، أو أتفاعل معهم، بما يعقب ذلك دائماً من حب أو خيبة، أو مرارة أو غضب. هذه كانت دروبي إلى الرؤيا النهائية التي هي: جبرا ابراهيم جبرا

(ينابيع الرؤيا... ١٩٧٩)

(١) في صفحة أقرب إلى أن تكون جزءاً من مذكرات عن سيرة أدبية ـ شخصية، سجل جبرا ابراهيم جبرا في كتابه **ينابيع الرؤيا** هذه الحقيقة المتعلقة بحياته: «ذهبتُ إلى العراق أول ما ذهبت وأنا مليء بفكرة كانت فاشلة في نفسي منذ أن أنهيتُ دراستي الثانوية بالقدس ـ فكرة ضرورة التجديد (...) وعندما وصلتُ إلى بغداد في أواخر ١٩٤٨، لم أكن أتوقع أنني سأجد فيها فجأة الأرض الرائعة الخصبة التي ستتلقى هذا العشق مني للتغيير والتجديد تلقياً سيزداد ويتسع، بحيث يصبح في النهاية حافز أصحاب الرؤى التي بمجموعها ستكون قوى التغيير لا في التعبير فقط، وإنما في المنحى الحضاري الذي كان لا بدّ لنا منه بعد نكبتنا في فلسطين».

وبعد أن يمرّ بعديد الأسماء، التي كانت الحافز والمنطلق لحركة التجديد هذه، يجد في ذلك «اللقاء» ضرباً «من اللقاءات المصيرية، لا في حياتنا كأفراد، وإنما في تاريخ فكر بأكمله. فالتفاعل الذي تمّ في الحال بين الشحنة التي تملأ نفسي من سنين، وبين الشحنة التي رأيتها من هؤلاء المنفتحين على أمل التجديد، دون تحقيقه بعد، أطلق الشرارة، الدفعة، التي كانت بشير الخصب في الشعر والقصة والرسم والعمارة طوال الخمسينات والستينات».

ومن إيمانه بقوّة الكلمة.. وبقوّة الفكر والإبداع، راح ينظر إلى التغيير الذي أحدثه وجيلُهُ في وجه المجتمع العربي خلال نصف القرن الأخير؛ فيرى فيه «تغييراً يكاد يكون كلياً» **(الرحلة الثامنة)**، وهو ما يدعوه إلى التأكيد على «مسؤولية المثقف»: في أن لا يخذل فكره، وفي أن يضمن لنفسه حرية الرأي وحرية القول، ويتمرّد على تلك «القوى الصمّاء» في المجتمع التي «ما زالت تستطيع فرض الصمت عليه» **(الرحلة الثامنة)**. فالمثقفون المبدعون، عنده، «هم الطليعة التي تقود المجتمع في أمثل حالاته، أو تحرّكه من الداخل باتجاه النضارة والإيناع، لما يتميزون به من وعي لذات الأُمة وقواها الفكرية» **(ينابيع الرؤيا)**.

(٢) يمثّل جبرا ابراهيم جبرا اسماً كبيراً بين الأسماء التي تنتمي إلى زمن عربي هو زمن الولادة والانتقال إلى حقبة جديدة من الثقافة والفكر العربي، هي: «حقبة التحوّل» الذي وضع الحدّ الفاصل، الأساسي والعميق، بين مرحلتين في الثقافة العربية الحديثة:

ـ المرحلة التي ركّزتْ نفسها من خلال ذلك «المعطى الإحيائي» وامتدّت به إلى ما يُعتبر لمحاتٍ تجديديةً لم تمتلك من قوّة التأثير ما يجعل منها تياراً.

ـ والمرحلة التي يمثلها جبرا وجيله، وقد وضعوا أنفسهم (وعصرهم) في إطار حركة أخذت نفسها وعملها بفكرة التقدم بالحياة والإنسان، من خلال ما قدّمتْ من مفهومات وأعمال مثّلتْ وعيها الجديد، وعبرت بها عن وجودها الجديد، فاتحة لعصرها، كما لنفسها، أُفق الحداثة، بكل ما رسم من صور متغيّرة بذاتها ومغيّرة للواقع العربي الجديد...

وبفعل فكرة التواصل لما هو وجود مستمر للجيل في مسار حركته هذه، وما هو بناء متواصل لما يؤكد فيه **الجديد** نفسه، وتؤكد فيه **الحداثةُ** مفهومها ومعناها، كان التوتّر الخلاّق رفيق هذا الجيل، والإضافةُ طابعَ عمله المميَّز.. فكان، بذلك، جيلاً مؤسِّساً بحقّ وحقيقة.

(٣) نتكلم عن «جيل» ونحن ندرك جيّداً أن لكل فرد في هذا الجيل خصوصيته: رؤيا، وموقفاً إبداعياً وفكرياً، وأُسلوب تعبير عن نفسه وموقفه وتجربته... وهو اختلاف يتجسّد في ما يلتزم من قيم، أو يشمل الوجود به من رؤى، وفي ما يؤسس للمعرفة من واقع.

(٤) «في المغامرة وحدها حريّة الفكر...»

هذه العبارة التي صادفها جبرا وهو يقرأ «ألفرد فورث وايتهد» هي ما أراد أن يقوله منذ أن بدأ رحلته الصعبة في الكتابة التي رآها على الدوام، كما رآها «وايتهد»، متمرّدة على كل نظام صلب، مبقيةً في الناس «مقدرتهم على ابتكار الآراء والفكر الجديدة، أو اكتشاف الأوجه الجديدة في الآراء والفكر القديمة». فقد وجد، كما وجد «وايتهد»، «في المغامرة وحدها حيوية الذهن» ووجد معها، في نفسه وفكره، أنّ «حاجات الذهن والروح هي أهمّ ما في الحياة» (**الحرية والطوفان**). وإذا كان قد شعر بأنه هو «مركز الحياة»، فإنّ هذا «التمركز» ليس إلاّ التعبير عن «روح المغامرة» هذه التي لا يمكن إلاّ أن تكون ذاتية: الذات مركزها، والذات منطلقها. ولئن يكن معظم ما كتب، من رواية وقصة وشعر، «في قرارته، تجربةً ذاتيةً، فإنما المهم [عنده] هو ربط هذه التجربة بالتجربة العامة الشاملة للفترة التي نمرّ بها، والتي هي من أهمّ فترات تاريخنا الطويل» (**ينابيع الرؤيا**). ولعلّ هذا هو ما يجعل من تعدديّة الفن الأدبي عنده منافذ لما يتراكم في نفسه من مشاعر، وغضب، وحبّ، وألم... كما يقول هو الذي سأل نفسه يوماً عمّا تبغيه من الحياة؟.. وأجاب قائلاً: «إذا كنّا يقظين، نصغي إلى الأصوات القريبة والبعيدة، ونرى المسافات الشاسعة تحتوينا كما يحتوي الجوُّ ذرّات الغبار، ونشعر إلى ذلك بأنّ الأشجار تستمد عُصَارتها من دمنا، والأزهار تعكس ألوانَ وجوهنا، وجدنا أننا، في الواقع، ملتقى قوىً هائلة دقيقة تفعل في وعينا، وأنّ وعينا تغزوه الآلامُ فتزيد من نشاطه وحدّته وبذلك نصل، في النهاية، إلى القول بأنّ ما نبغيه من الحياة هو استزادة من الوعي بها عن طريق القوى الهائلة الدفينة فينا ـ من حسيّة وعاطفية وفكرية...» (**الحرية والطوفان**)

(٥) ولا يبتعد جبرا عن هذا في شيء وهو يؤكّد أنّ المدينة عالمه: «المدينة العربية الجديدة، بكل ما فيها من تناقضات وتيارات وآمال ومخاوف». فهي فسحة هذه المغامرة التي بدأها، ووجد معه فيها جيلاً من المتمّردين لم تزدهم المدينةُ وحياةُ المدينة إلاّ تمرّداً. فهي «ساحة الصراع على المستوى الفردي والمستوى الجماعي (...) ومنها تنطلق قوى الهدم والبناء إلى هدف وغير هدف» (**الحرية والطوفان**). ففي عالم المدينة وجد جبرا «الآفاق الجديدة» التي اكتشفها، «والاتساع بتجربة الإنسان، والانطلاق في مغامرة الذهن في مجاهل الحياة» ـ وهو ما حدّد آفاق الفن عنده، ورسم غاياته من خلاله. فـ «المدينة العربية الجديدة هي النفسُ العربية الجديدة، هي رأس الرمح في الثورة العربية.. تيارات عارمة، متناقضة في كل مكان» (**ينابيع الرؤيا**). ولذلك فهو في الوقت الذي يشعر فيه أنه «جزء من هذه المدينة» ـ وقد عرفها «من أسفلها إلى أعلاها.. داخلها وخارجها» ـ يرى «أن الإبداع المعاصر لن يكون إلاّ في هذا التغلغل في المدينة العربية الجديدة، علوّاً وسفلاً»، وأنّ الفن غير ممكن «في أغزر أشكاله، إلاّ في المدينة» (**ينابيع الرؤيا**).

(٦) لقد رحل جبرا اليوم بعد أن اجتاز نصف قرن من الكتابة والعطاء الفنّي والفكري والإبداعي، وما يقرب من ستين كتاباً بين تأليف وترجمة. وإني لأجده يتمثل، أكثر ما يتمثّل، تلك الكلمات التي ثبتها في كتابه **ينابيع الرؤيا** وقد اقتبسها من «اندريه جيد» وفيها يقول: ـ «إنّي سأبقى ابناً لهذه الأرض، وسأظلّ على اعتقادي بأنّ الإنسان، مهما يكن ومهما تعدّه أنت ملوّناً، عليه أن يجيد اللعب بما قسم له الحظّ من ورق..»

فهي صورة أُخرى لروح المغامرة عنده.

(٧) ولكن...

ـ هل حقّقت الحياة الثقافيةُ العربية لجبرا، في ما هي عليه اليوم، ما كان يحلم به، كلاًّ أو بعضاً؟

ربما كان، هو نفسه، يجيب عن سؤال كهذا حين كتب في واحدة من صفحات كتابه **الفن والحلم والفعل** (١٩٨٦) يقول: «الحياة الثقافية، بالرغم من كل مخاطراتنا وطموحاتنا وتفجراتنا.. بالرغم من كلّ صرخاتنا وغضبنا وتحرّكنا، لم تحقّق إلاّ القليل مما كنا نحلم به، حتى ليحار المرء أحياناً ويقول: إذا كان كلّ ما سعى إليه يؤدي، في النهاية، إلى هذا التردي الثقافي، فلماذا أصلاً سعى؟ ولكن لا بدّ من الاستدراك والتساؤل: هل هناك هذا التردي الذي يجوز لنا معه أن نيأس ونسكت؟»

ولعلّ في مسعى **الآداب** ـ التي واجهت هذا التردي، في الثقافة وفي الحياة العربية، على مدى أكثر من اثنين وأربعين عاماً من مسارها ـ محاولةً الخروج من هذا «الليل العربي»، بما قدّمتْ من قبلُ، وبما تقدّم اليوم، ومن هذا الذي تُقدّمه ونقدّمه من خلالها في هذا المحور... صورةً للدينامية الفكرية العربية التي تؤكد حيوية الأُمة؛ كما ترسم صورةً حيّة لمخاضها الفكري والأدبي والفنّي الكبير ـ تشبثاً منها وممّا بالحلم الحضاري الذي بدأته وبدأناه معها ومن خلالها... بتلك الأسماء التي عاشت هذا الحلم، ونهضت به، وفي الطليعة منها اسم: جبرا ابراهيم جبرا.

بغداد